جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

ظِلالُ الْمَعَانِي لِحُرُوفِ الْمَعَانِي فِي الْعربيَّة
(بَعْضُ الحروفِ الثُنَائيَّةِ والثُلاثيَّةِ أنْمُوذَجًا)

Shades of meanings of letters in Arabic
(Some double and triple letters are an example)

إعداد

أ.م.د. مؤيد عبد الجبار خضير

جَامِعَةُ بغدَاد– كُلِّيَّةُ عُلومِ الهندسةِ الزراعيَّةِ– قِسْمُ المكائنِ والآلاتِ الزراعيَّة

(العدد الثالث والأربعون)
(الإصدار الثالث-أغسطس)
(الجزء الثاني (١٤٤٦هـ /٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) *2536- 9083)*

ظِلالُ الْمَعَانِي لِحُرُوفِ الْمَعَانِي فِيْ العربيَّة

(بَعْضُ الحروفِ الثُنَائيَّةِ والثُلاثيَّةِ أنْمُوذَجاً)

مؤيد عبد الجبار خضير

جَامِعَةُ بغدَاد، كُلِّيَّةُ عُلومِ الهندسةِ الزراعيَّةِ، قِسْمُ المكائنِ والآلاتِ الزراعيَّة

البريد الإلكتروني: *Muayad.a@coagri.uobaghdad.edu.iq*

الملخص

تَتَّسمُ حروفُ المعاني في العربية بتنوع مادَتِهَا اللغويَّة وغزارتها، وتنمازُ أيضاً بكثرةِ عددِهَا وأقسامِهَا، حتى أنَّ بعضَهُم أوْصلَ عددَهَا إلى مئةِ حرفٍ منحصرة في أقسامٍ خمسةٍ هي: الأحادي، والثنائي، والثلاثي، والرباعي، والخماسي (المرادي، ١٩٩٢م: ٢٩)، ولكلِّ حرفٍ منها معانٍ كثيرة. لقَدْ تناولَ الباحثون جوانِبَ عديدةً في دراستها بحَسَبِ مَنْهَجِ كل واحدٍ منهم. أمَّا بَحْثُنَا الذي بين أيدينا فسأكرسُهُ لجانبٍ محددٍ وهو الدلالةُ المركزيةُ للحرفِ وما يثيره من دلالاتٍ ثانويةٍ أو فرعيةٍ وهو ما عُبّرَت عنه بالمعنى وظلال المعنى.

والحقيقةُ أنَّ هذا الجانبَ من الدراسةِ لم يحفلْ به كثيرٌ من علماءِ النحوِ قديمًا؛ ذلك لأنَّهم لم ينظروا للحرّفِ من حيث دلالته الأصلية والفرعية بقَدَرِ تركيزهم على الجوانبَ التصريفيةِ والإعرابيةِ له. وفي بَحْثِنَا سنحاولُ جاهدينَ الكشفَ عن الدلالةِ المركزيةِ للحرفِ والدلالات الأخرى التي تُعَدُّ ظلالًا للمعنى المركزي، عَلى وفْقِ معايير يفرضها المقامُ والسياقُ، غير منعزلةٍ عنهما تمامًا، ولعلَّ في تجاوزَ الأصلِ أحيانًا في هذه الحروف وهو ما يسمى بالانزياحِ، أو العدولِ، أو الانحرافِ، عند البلاغيين هو وسيلةُ أداءٍ فنيَّةٍ يلجأُ إليها المبدعُ؛ لتحقيقِ أهدافٍ مقصودةٍ منها: تحريكُ ذهنِ المخاطبِ ومفاجأتِهِ بغيرِ المتوقعِ، وكذلكَ إحاطةُ الدلالةِ بنوعٍ من الظلالِ، أو المعاني التي تؤسس ناتجًا إضافيًا عند القارئ (خضير، ٢٠١٤م: ٤٧١)، فالمعنى الأولُ

للحرفِ هو المعنى الأصلي، أمَّا سائر المعاني الأخرى فهي ظلالٌ له، آخذين بنظرِ الاعتبار أنّه قد يَتنازعُ المعنى الأصلي أكثر من معنى وهو ما سيكشفه البحث، ومن المعايير الأخرى أيضًا تقديم الدلالة الأصلية المتفق عليها بين أغلب العلماء، معتمدين في ذلك على مصنفات القدماءِ، والمُحْدَثِينَ، والمُعاصرين. وأخيرًا ومن أجل دراسةٍ علميةٍ منهجية، قسَّمتُ البحث على تمهيدٍ، ومبحثين، وخاتمةٍ، وأبرز النتائج.

الكلمات المفتاحية : ظلال، المعاني، حروف.

Shades of meanings of letters in Arabic

(Some double and triple letters are an example)

Muayad Abdul Jabbar Khudair

University of Baghdad/ College of Agricultural Engineering Sciences

Email: *Muayad.a@coagri.uobaghdad.edu.iq*

Abstract:

Meaning letters in Arabic are characterized by the diversity and abundance of their linguistic material, and are also distinguished by their large number and types, to the point that some of them have reached a hundred letters confined to five categories:

Unilateral, dual, triliteral, quadruple, and pentagonal, each letter of which has many meanings. Researchers have dealt with many aspects in studying it, according to the approach of each one of them. As for our research at hand, I will devote it to a specific aspect, which is the central connotation of the letter and the secondary or subsidiary connotations it raises, which is what I expressed in meaning and shades of meaning. The truth is that this aspect of the study did not pay much attention to it Ancient grammar scholars; This is because they did not look at the letter in terms of its original and secondary meaning as much as they focused on its morphological and grammatical aspects. In our research, we will try hard to reveal the central meaning of the letter and other meanings according to criteria imposed by the place, including the order of meanings, as we consider the first meaning of the letter to be the original meaning and all subsequent meanings to be sub-meanings to it, taking into account that there may be a dispute over the original meaning itself, which is what the research will reveal, and among the criteria The other also presents the original meaning agreed upon by most scholars, relying in this on the works of the ancients, moderns, and contemporaries.

Keywords: *Shades, meanings, letters..*

الْتَمْهِيدُ

يتضمنُ تَمْهِيدُنَا تعريفًا دقيقًا بمفرداتِ العنوان لغةً واصطلاحًا، وكذلك إشكالية الموضوع، والمنهج الذي اتَّبعْتُهُ في البحث، وكذلك حروفُ المعاني وموقف علماء اللغةِ من تعدد دلالاتها، ثُمَّ ماهية الدلالة الأصليَّة للحرف؛ للوصولِ إلى الأهدافِ المرجوة منه.

الظّلُ لغةً واصطلاحًا: وَردَتْ مادةُ (ظل) في المعجماتِ العربيةِ لتعني العملَ في النهارِ، فيقال: ظلَّ فلانٌ نهارَهُ صائمًا. وسَوادُ الليلِ يُسَمَّى ظِلًا [١]. والظلُّ كذلك: المَنَعةُ والعزُّ. يُقَال: فلَانٌ فِي ظلّ فلَانٍ أَي: فِي عزه. قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَوْ كُنْتَ مَوْلَى الْعِزِّ أَوْ فِي ظِلَالِهِ ظَلَمْتَ وَلَكِن لَا يَدَيْ لَك بالظُّلَمِ [٢]

أَي لَو كُنْتَ ذَا عزٍ، أَو فِي ظِلالِ ذِي عزٍ[٣]. وكلُّ موضعٍ يكون فيه الشمسُ وزالت عنه فهو ظِلٌ وفَيْءٌ... وأظلكَ فلانٌ بمعنى: الدنو والقرب.[٤]

ومن المعنى اللغويّ لمادة (ظِل) ننتقل إلى معناها الاصطلاحي وهي مضافة إلى لفظة المعاني، فالمقصود بـ (ظلِّ المعنى) بِحَسَبِ علم البلاغة، هي المعاني الثانوية للمعنى المركزي، وقد أطلقَ علماءُ النَّحوِ عليه وفْقَ نظرية الأصل والفرع التي لطالما ذكروها في مصنفاتهم بأصل المعنى ومقصودهم به: هو الأولُ الذي يبنى عليه ثانٍ، وفرعُ المعنى: وهو الثاني الذي يبنى على أول.[٥]

---

(١) الفراهيدي، ١٩٨٥م: ١٤٩/٨ باب الظاء واللام.

(٢) ديوان الفرزدق،١٩٨٧م:٥٨٧.

(٣) ابن دريد، ١٩٨٧م: ١٥٣/١ مادة، ظ، ل، ل.

(٤) بن عبَّاد، ١٩٩٤م:١٠/١٠، مادة ظل.

(٥) الرمَّاني، د.ت: ٧٣، باب الحدود.

وقد ورد المصطلحُ عند الدكتور أحمد عبد السلام الراغب في ضوء ما نقله من تفسير لفظةِ (مُرْضِعَة) عند الزمخشري (ت٥٣٨هـ) من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ (الحج: ٢)، إذ يرى أنَّ اللفظةَ أكثرُ إيحاءً ودلالةً من(مُرْضِع)، فالمُرْضِعَةُ تدلُّ على إرضاعِ طفلِهَا وقت الحدث، ولكنَّها لشدة الهول في ذلك اليوم تُذْهل عن طفلها الرضيع، أمَّا المُرْضِعُ فلا تدلُّ على إرضاع طفلها وقت الحدث، فالزمخشري لا يتوقف عند الدلالةِ اللغويَّةِ للاسم المؤنث، بل يلاحظُ ما بين الاسمينِ من فروقٍ في ظلال المعاني والإيحاء بها من وراء الدلالة اللغوية، وهذه الظلالُ مقصودةٌ في رسمِ صورةِ ذلك المشهد، وما يُحِيطُ به من أهوالٍ وأحداثٍ في ذلك اليوم(١). وورد معناهُ عند الدكتور أحمد مختار عمر عندما فسَّرَ (المعنى الكامل) بقوله: هو ((ما تحمله كلُّ كلمةٍ من ظلالِ المعاني إلى جانب معناها الأساسي)) (٢).

مُشْكِلةُ الْبَحْثِ:

يطرحُ البحثُ إشكاليةً كبيرةً تَتَمَثَّلُ باستعمالِ حروفِ المعاني، وفي نصوصٍ لغويَّةٍ كثيرةٍ. إذ إنَّ الفعلَ في سياقاتٍ مُعيَّنة قد يتعدَّى بحرفٍ هو ليس له ، فأصْبَحَ هذا الاستعمالُ مسألةً خلافيةً بين النحويين، والفقهاء، والأصوليين وقد تَنَاوَلْتَها أقلامُ الباحثين القدماء استقراءً وبحثًا وتنظيرًا، أمَّا في العصرِ الحديث فقد ظَهَرَتْ نظرياتٍ كثيرةً تَنَاولَتْ موضوع المعنى المركزي وما يصحبه من دلالاتٍ هامشيةٍ كثيرةٍ، وقد حاولْتُ أنْ أخوضَ في هذه المسألةِ في ضوء هذه الدراساتِ اللغويَّةِ الحديثةِ ما

(١) الراغب، ٢٠٠١م: ٤٠٥ والزمخشري، ١٩٨٧م: ١٤٢/٣.
(٢) عمر، ٢٠٠٨م: ١٨٩/١.

استطعتُ إلى ذلك سبيلًا، فإن وُفقْتُ فمن الله وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان، وحَسْبيَ أنَّني اجْتَهَدتُ.

مِنْهَاجُ البحثِ:

اقتضت طبيعةُ البحثِ اتِّباعَ المنهج الوصفي التحليلي؛ إذ قمتُ باستقراء هذه الظاهرة في عددٍ مُحددٍ من الحروف، ثُمَّ عَمِلْتُ على وصفها وصفًا مستفيضًا، مستعرضًا أهم الأقوال فيها وفي معانيها ودلالاتها، مثلما بيَّنتُ أهمية تضافر القرائن الحالية والمقامية مع السياق وأثر ذلك في عرض المعاني الهامشية لهذه الحروف (ظلال المعنى المركزي).

حروفُ المعاني وموقف علماء اللغة من تعدد دلالاتها:

يذهبُ أغلبُ النحويين أنَّ للحرفِ الواحدِ معنىً واحدًا هو الغالب عليه، وهو المعنى الرئيس له؛ لأنَّه الأكثر شيوعًا واستعمالًا في دلالتِهِ لهذا المعنى، أمَّا ما يحيطُ به من معانٍ أخرى فهي راجعةٌ إليه؛ لذلك يُعِدّونَ هذه المعاني ظلالًا له، وقد تسمى أحيانًا معانٍ ثانوية، أو هامشية تأتي في سياقات معيَّنة، فمثلًا أنَّ حرفَ (الباء) عندهم يأتي لمعنى الإلصاق، والحرف (على) يأتي لمعنى الاستعلاء، والحرف (عن) يأتي لمعنى المجاوزة، والحرف (من) يأتي لمعنى ابتداء الغاية، وهكذا بالنسبة لبقية الحروف، ومن ثَمَّ يضيفون إلى كلِّ واحد من هذه المعاني معانيَ آخر تؤول إلى هذا المعنى، وبذلك يكون المعنى المذكور أولًا كالأصل الذي ترجع إليه المعاني الأخرى.

وممَّا ذكرناه آنفًا نستطيعُ تفسيرَ قول المرادي (ت٧٤٩هـ) في معنى (اللام): ((إنَّ معنى (اللام) في الأصلِ هو الاختصاص، وهو معنىً لا يفارقها، وقد يصحبه معانٍ آخر، وإذا تُؤُصِلت سائر المعاني المذكورة وجدتها راجعةً إلى الاختصاص، وأنواع الاختصاص متعددة؛ ألا ترى أنَّ من معانيها المشهورة (التعليل)... وهو راجع إلى معنى الاختصاص، لأنَّك إذا قلت: جئتكَ للإكرام، دلَّت (اللام) على أنَّ مجيئكَ

مختصٌ بالإكرام؛ إذا كان الإكرامُ سببه دون غيره، فتأمل ذلك)) [1]، ولننظر إلى قوله في معنى (من): ((وقد ذهب المبرد، وابن السراج، والأخفش الأصغر، وطائفة من الحذاق، والسهيلي، إلى أنَّها لا تكون إلا لابتداء الغاية، وأن سائر المعاني التي ذكروها راجع إلى هذا المعنى؛ ألا ترى أنَّ التبعيضَ من أشهرِ معانيها، وهو راجعٌ إلى ابتداء الغاية. فإنك إذا قُلْتَ: أكلتُ من الرغيف، إنما أوقعت الأكل على أول أجزائه، فانفصل. فمآل معنى الكلام ابتداء الغاية)) [2] . وقد اضطرب قول المبرّد في القول بعدم زيادةِ (مِنْ) على ما سنذكره لاحقًا عند تَنَاولنا هذا الحرف. وأجازتْ طائفةٌ أخرى من علماءِ اللغةِ نيابةَ الحروفِ بَعْضُهَا مكانَ بعضٍ، وصحَّ تنوع معاني الحرف الواحد، وأنَّ كلَّ معنى من هذه المعاني قسمٌ برأسه، وليس أحدُهَا أصلًا وغيره راجعٌ إليه، قال المرادي: ((ردَّ كثير، من المحققين، سائر معاني الباء إلى معنى الإلصاق، كما ذكر سيبويه[3] . وجعلوه معنى لا يفارقُهَا، وقد ينجرُّ معه معانٍ أخر. واستبعد بعضهم ذلك، وقال: الصحيح التنويع. وما تقدم من نيابةِ الباءِ عن غَيْرِهَا من حروف الجر هو جارٍ على مذهب الكوفيين، ومن وافقهم، في أنَّ حروفَ الجر قد ينوب بعضها عن بعضٍ. ومذهبُ البصريين إبقاء الحرف على موضوعه الأول، إما بتأويل يقبله اللفظ، أو تضمين الفعل معنى فعل آخر، يتعدى بذلك الحرف)) [4] .

وفيما أراهُ أنَّ ظاهرة الإبدال تلك تخلُّ بظاهرة معيارية اللغة؛ لأن هذه المعايير حُدِّدَتْ على وفقِ نصوصٍ مختارةٍ من الشعرِ والنثرِ، وهذا يعني من الوجهةِ النظرية أنَّه لابدَّ من وجود فروقٍ بين النظام اللغوي (المعيار)، وظواهر الاستعمال اللغوي،

---

(١) المرادي، ١٩٩٢م: ١٠٩.

(٢) المرادي، ١٩٩٢م: ٣١٥-٣١٦.

(٣) سيبويه، ١٩٨٨م: ٢١٧/٤.

(٤) المرادي، ١٩٩٢م: ٤٦.

فإذا كان المجازُ هو كسرُ العلاقةِ العرفيةِ بين اللفظ والمعنى الذي وضِعَ له في الأصلِ، فإنَّ ظاهرةَ إبدال الحروف كسرٌ هو الآخر للعلاقة التي بين الحرف والمعنى الذي وضع له في أصل كلامهم، إلا أن النحاة القدامى أطلقوا على هذه الظاهرة مصطلح (الاتساع) وهو من سنن كلامهم، ومن ثمَّ لا يخرج عن معيارية اللغة، والاتساع ينتج عن تبادل الوظائف النحوية.

وهناك فرضيةٌ أخرى تنسجمُ مع تلك الرؤية وهي التي تبنَّاها أحد الباحثين المعاصرين وطرحها على ساحة البحث العلمي، معتقداً أنَّها ستشكل بديلا مناسباً لنظريتين سبقَ أنْ قال بهما علماء اللغة هما: نظرية تناوب الحروف فيما بينها. ونظرية التضمين، ومؤدَّاها أنَّ لكلِّ حرفٍ من حروف المعاني معنىً عامًا مركزيًا، ولكنَّ هذا المعنى ليس بثابت في كلِّ نص بل هو متحرك بحَسَبِ السياق، وهناك عددٌ من المعاني الهامشية، أو السياقية، أو المتحركة، أو ظلال المعنى العام، قد ترافق هذا المعنى المركزي أو تحلُّ مكانه، والسياقُ هو القوة المحركة للمعنى الحرفي[1] .

دلالة الحروف الأصلية:

إنَّ الأصلَ في معرفة دلالة كلِّ حرف من هذه الحروف هو استقراء كلام العرب من مصادره وأصوله متمثلاً بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وشعر العرب، وكذلك نثرهم. وقد تتعدد دلالة النص وفقَ تعدد دلالة الحرف الواحد وما يحمله من معنى هو الأصل، أو معانٍ أخرى فرعية يقتضيها السياق هي ظلال ذلك المعنى الأصلي، ونستشهدُ في الصفحات التالية من هذا البحث بعددٍ من الأمثلة لمجموعةٍ من حروف المعاني الثنائية ومثلها من الثلاثية؛ مسلطين الضوءَ على ما تثيره تلك الحروف من معانٍ مركزية، أو رئيسة وفق مذاهب العلماء وأقوالهم، وما تثيره تلك

(١) الطيَّار، ٢٠٠٥م:٥٤.

الحروف من ظلال يحيط بمعناها الأصلي، وليس من هدفنا تناول تلك الحروف جميعًا بل سيقتصر الأمر على عدد منها لتوضيح تلك الفكرة، وطرحها على ساحة البحث العلمي.

أهداف البحث: وتدور حول:

١- تقديم تصورٍ واضحٍ لظاهرة ظلال المعاني للحروف موضع الدراسة.

٢- فَتْحُ البابِ أمام دراساتٍ مشابهةٍ، لحروف معانٍ آخر، يمكن أن تتجلى فيها هذه الظاهرة، وهذا يجعل من الدراسات اللغوية المعاصرة أكثر حيوية في الكشف عن مكنونات هذه الحروف.

٣- وضع اليد على هذه الخاصية لهذه الحروف، وما لها من دورٍ فعَّال في عرض المعنى واتساعه على الوجه الصحيح مع دقة الأداء والاستعمال.

المبحث الأول

حروف المعاني الثنائية

(من):

ورد الحرف (من) في مواطنَ كثيرةٍ جدًا في لغة العرب، ومنها نصوصٌ قرآنيةٌ، وشعريَّةٌ، ونثريةٌ، وله من المعاني الأصلية ثلاثةُ بحَسَبِ ما ذكره علماءُ النحوِ، هي: ابتداء الغاية، والتبعيض، والتبيين وتسمى أيضًا (الجنسية) (١) . وقد تأتي لـــ (من) معان أخر، غير تلك التي عددناها الأصل، إذ قد تأتي للتفضيل نحو: هو أفضل منه، وتأتي للمجاوزة نحو: أطعمه من جوع، وكساه من عري، وسقاه من العيمة، وقد تأتي أيضًا بمعنى (الباء) نحو قوله تعالى: ﴿ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ (الرعد: ١١)،(٢)، وقد تأتي زائدة عند بعض النحويين كالمبرّد كما ذكرنا، الذي كان مضطربًا فيها إذ قال بعدم زيادتها مرة ثم أنكر ذلك في موضع آخر إذ قال: ((وأَمَّا قَوْلهم إِنَّها تكون زَائِدَة فلست أَرى هَذَا كَمَا قَالُوا وَذَاكَ أَنَّ كلَّ كلمةٍ إِذا وَقعت وَقع مَعهَا معنى، فإِنَّما حدثت لذَلِك الْمَعْنى، وَلَيْسَت بزائدة فَذَلِك قَوْلهم: مَا جَاءَنِي من أَحد، وَمَا رأَيت من رجل. فَذكرُوا أَنَّها زَائِدَة وأَنَّ الْمَعْنى: مَا رأَيت رجلا، وَمَا جاءَني أَحد، وَلَيْسَ كَمَا قَالُوا)) (٣) ثُمَّ عاد فقال: ((وَتَكون زَائِدَة لتدل على أَنَّ الَّذِي بعْدهَا وَاحِدٌ فِي مَوضِع جَمِيع وَيكون دُخُولهَا كسقوطها.... نحو: مَا جَاءَنِي من أحد)) (٤) . وقد تأتي للقسم مع لفظ (الرَّب)

---

(١) الإربلي، ١٩٩١م: ٢٦٩.

(٢) السامرائي، ١٩٨٧م: ٢٠٥.

(٣) المبرّد، ١٩٦٣م: ١/٤٥.

(٤) المبرد، ١٩٦٣م: ٤/١٣٦.

خاصة نحو: مِنْ رَّبّي لأفعلنَّ[1] . ومع ذلك فقد اختلفَ علماءُ النحو فيما يمكن أنْ يتفرد بالأصلية من هذه المعاني على مذاهب، فالمبرِّد يرى أنَّ معناها الأصلي هو ابتداء الغاية، أمَّا بقية المعاني فهي فروع لهذا المعنى؛ إذ يمكن ردَّها إليه[2] ، وأصل معناها عند الفارسي، وابن عصفور التبعيض[3]، وقال آخرون: التبيين هو أصل معناها، وقد ذكر أحد الباحثين المعاصرين بعدما وظَّف الجانب اللغوي في معنى (من) في قوله تعالى: ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ ﴾ (المائدة:٦)، أنَّه أفاد تحقيق ثبوتية المعنيين إلى هذا الحرف، على الرغم من الخلاف في كونها للتبعيض أو ابتداء الغاية، وقد استند في حجته بقوله: ((لم أجد إنكارًا حقيقيًا من طرفي الخلاف ينصُّ على اقتصار الحرف (من) على معنىً واحد)) [4] .

وذكر المتأخرون معانيَ كثيرةً وردت لهذا الحرف، لكنَّها ليست هي الأصل بل هي معانٍ لها تأتي في سياقات مُعيَّنة، وقد تأوَّلَ قسمٌ من النحويينَ ذلك إمَّا على التضمين، كما فعل البصريون إذ لكلِّ حرفٍ عندهم معنًى واحدٌ لا يتجاوزه، أو على النيابة أي: أن ينوبَ الحرفُ منابَ حرف آخر وهو مذهب الكوفيين.

ونقفُ هنا عند آيةٍ قرآنيةٍ كريمةٍ ناظرين إلى الحرف (من) وكيف اختلف النحويون والمفسرون فيه؟ وموقفنا نحن من هذا الاختلاف.

قال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٌ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، ففي قولِهِ تعالى (منكم) قولان لـــــ (من):

---

(١) المرادي، ١٩٩٢م: ٣١٥.

(٢) المُبَرِّد، ١٩٦٣م: ١/٤٤.

(٣) الوقَّاد، ٢٠٠٠م: ١/٦٣٧.

(٤) عباس، ٢٠١٤م: ١٤٢.

الأول: إنَّها ليست للتبعيض؛ لدليلين اثنين:

الأول: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى كُلِّ الْأُمَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

الثاني: هو أنَّه لا مكلف إلاَّ ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إمَّا بيده، أو بلسانه، أو بقلبه ... فيكون معنى هذه الآية: كونوا أمةً دعاةً إلى الخير، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر))[1] . ومعنى هذا أنَّها للتبيين.

وأرى والله أعلم أنَّها قد يراد منها المعنيين معًا المعنى المركزي لها وهو إفادتها معنى التبعيض وهو أصل معناها عند طائفة من النحويين مثلما ذكرنا، والمعنى الآخر إفادتها معنى التبيين. ونعدّه في هذه الحالة ظلًا لذلك المعنى الأصلي، وفقًا للسياق الذي وردت فيه، ففي الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كان واجبًا على الكل، إلَّا أنَّه متى ما قام به قومٌ سقط التكليف عن الآخرين.

ممَّا سبق نرى أنَّ اعتبار اللفظ أو الحرف على ما وضع له أصلًا أو أولًا، وفق القائلين بالمعنى الواحد لا يسعفنا في الكثير من النصوص، فلابدَّ والحال هذه أن نلجأ إلى ما يسمى عند المحدثين بـــ (الاستبدال الدلالي)، وأطلقَ عليه النحاة القدامى بـــ (المجاوزة) ولعلَّهم يعنون بها (المجاز).

وقد تأتي (من) لتثير ظلالًا معنوية في تأكيد استغراق الجنس أيضًا بشروط هي:

الأول: أنْ يكونَ ما قبلها غير واجب.

---

(١) الرازي، ١٤٢٠هـ: ٣١٤/٨.

الثَّاني: أنْ يكونَ ما دخلت عليه نكرة نحو: ما قام من أحدٍ، و: ما قام من رجلٍ.

الثالث: أن يكون مجرورها فاعلًا أو مفعولًا به أو مبتدأ [1] .

ومع ذلك لم يشترط الأخفش الأوسط واحدًا من الشرطين الأوليين، وذلك بدليل عدِّه (من) زائدة في قوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٧١). ويرى الدكتور عبد الأمير الورد أن الناظرَ في النصوص التي أوردها الأخفش في معاني القرآن ونص فيها على زيادتها يجده لا يشترط حتى الشرط الثالث، وذلك أنَّه ينصُّ على زيادة (من) قبل الظرف للتوكيد، فيقول في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ﴾ (الزمر: ٧٥) فيقول: إنَّ (من) ادخلت ههنا توكيدًا نحو قولك: ما جاءني من أحدٍ، فليس هنا موضع فاعل أو مفعول به أو مبتدأ وإنَّما هو ظرفٌ معمولٌ لاسم الفاعل (حافين)، ولهذا يرى الورد أنَّ في إطلاق الأخفش زيادة (من) كان مُنجدًا ومنقذًا للمفسرين والمعربين في العديد من المواضع ينجدهم في التعليل وينقذهم من التأويل[2] ، ومع ما أفَادَتْه (من) في هذا السياق من معنى هامشي وهو إفادة معنى تأكيد العموم لا العموم نفسه أي: إنَّ الصّيغة تفيدُ الاستغراق أصلاً من غير وجود (مِن)، أمَّا تأكيدُ الاستغراق فلا يكون إلاّ بزيادتها[3] ، إذ تبقى محتفظة بمعناها الأصلي وهو التبعيض، قال سيبويه: ((وأمَّا (مِنْ) ... فتكون أيضًا للتبعيض، ... وذلك قولك: ما أتاني من رجلٍ، وما رأيْتُ من أحدٍ. ولَوْ أُخْرِجَتْ (مِنْ) كان الكلام حسنًا، ولكنَّهُ أكّدَ بـ(مِنْ) لأنَّ هذا موضعُ تبعيض، فأراد أنَّهُ لم يأتِهِ بعضُ الرّجالِ والنّاسِ، وكذلك: ويْحَهُ مِن رَجُلٍ؛ إنّما أرادَ أن يَجعلَ

(١) الأندلسي، ١٩٩٨م:٤/١٧٢٥.

(٢) الورد، ١٩٧٠م: ٢٤١ و الأخفش، ١٩٨٥م:١/ ٢٧ و خضير،٢٠٠٨م: ٨٥.

(٣) يحيى، ٢٠٠٧م: ٣٢٤.

التّعجبَ من بعضِ الرّجال)) [١] . وتفيء(من) بظلال معنوية أخرى كثيرة منها التعليل كقول امرؤ القيس:

وَذلكَ مِن نبأ جاءنَي وأنْبِئْتُهُ عَنْ أَبِي الأسْود [٢]

وتفسير البيت وفقًا للسياق التي وردت فيه (من) أنَّ ما يعانيه الشاعر من السهرِ والألمِ هنا كان بسبب النبأ الذي جاءه، فـــ (من) حملت معنى التعليل والسببيَّة، فضلًا عمَّا عبَّرت عنه من ابتداء السهر ومصدره. ومن ظلالها أيضًا معنى البدلية ونذكر من الشواهد بيت زهير بن أبي سلمى:

تَحَمَّلَ أَهْلُهُ مِنْهُ فَبَانُوا وَفِيْ عَرَصَاتِهِ مِنْهُمْ رُسُوم [٣]

وتفسيرُ البيتِ وفقًا للسياق التي وردت فيه (من) هو أنَّ تلك الرسوم التي بقيت في العرصات، هي بديلٌ من أهل الحي بعد أن بانوا عنه وابتعدوا، ومعنى الابتداء المركزي الذي نلاحظه ما زال جزءًا منه محفوظًا في المعنى؛ فهم مصدر تلك الرسوم التي بقيت.

(قد):

وهو من الحروف الثنائية، وجملة ما ذهب إليه النحويون من معانٍ لهذا الحرف أنَّها خمسة وهي: التوقع، والتقريب، والتقليل، والتكثير، والتحقيق. وقد اختلفوا في تحديد المعنى الرئيس لهذا الحرف على مذاهب، فمنهم من ذهب إلى أنَّ معناه التوقع[٤]، ومنهم من ذهب إلى أنَّ معناه التحقيق [٥] ، ومنهم من ذهب إلى معناه

(١) سيبويه، ١٩٨٨م: ٤/٢٢٥.

(٢) ديوان امرؤ القيس، ٢٠٠٤م: ٥٣.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى، ٢٠٠٥م: ٦٣.

(٤) المرادي،١٩٩٢م: ٢٥٥.

(٥) الأستراباذي، ١٩٩٦م: ٤/٤٤٤.

التقريب[1]، وفي ضوء استقصائي للمصادر والمراجع العلمية وجدت أنَّ المالقي أكثر دقة في تحديد المعنى المركزي لهذا الحرف، ومنه تنبثق ظلال معانيه الأخرى فقد ذكر أنَّ (قد)، حرف إخبار، إلَّا أنَّها أبدًا تلزم الفعل ماضيًا، أو مضارعًا، فتكون مع الماضي حرف تحقيق .....، ومنه قوله تعالى:﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ (المجادلة: ١)، ومع المضارع حرف توقع تارة وهو الكثير فيها كقولك: قد يقوم زيدٌ، في تقدير جواب من قال: هل يقوم زيدٌ، ..... وقد تكون للتحقيق معه وهو قليل، كقول امرؤ القيس:

وَقَدْ أَغْتَدِي والطَيْرُ فِي وَكَنَاتها بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ [2]

وقد تكون تقليلًا، وهو أيضًا قليل، كقول عبيد ابن الأبرص:

قَدْ أَتْرُكُ الْقِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُهُ كَأَنَّ أَثْوابَهُ مُجَّت بِفِرْصَادِ [3]

فالإخبارُ في جميع ذلك لا يخالفها، فهو الخاصُّ بها الذي تبقى به [4] ، أي: أنَّ المعنى المركزي لـــ (قد) الإخبار، أمَّا ما تحمله من ظلال هذا المعنى فمتأتية من السياق، فهي مع الماضي تفيد التحقيق، ومع المضارع تفيد التوقع وأحيانًا التحقيق. وهناك معنى آخر لـــ (قد) وهو التقليل.

ويبدو أنَّ معنى التحقيق فيها هو أبرز معانيها وأشهرها مثلما ذكر النحويون ذلك؛ لأنه المعنى الذي لم ينفه أحدٌ من العلماء عن هذا الحرف، فقد ذكر الأسترآبادي أنَّ (قد) إذا دخلت على الفعل الماضي أو المضارع فلابدَّ فيها من معنى التحقيق، ثُمَّ

---

(١) ابن يعيش، ٢٠٠١م: ٩٢/٥.

(٢) ديوان امرؤ القيس، ٢٠٠٤م: ١١٨.

(٣) ديوان عبيد بن الأبرص، ١٩٩٤م:٥٦.

(٤) المالقي، ١٣٩٤هـ: ٣٩٢-٣٩٣.

ينضاف إلى ذلك المعنى التقريب، أو التوقع ففي (قد) إذن ثلاثة معانٍ مجتمعةً هي التحقيق، والتوقع، والتقريب، وقد ينضاف التقريب مع التحقيق، أو التقليل مع التحقيق نحو: إنَّ الكذوب قد يصدق، أي: بالحقيقة قد يصدر عنه الصدق وإن كان قليلًا، وقد تستعمل للتحقيق مجردًا من معنى التقليل كقوله تعالى:﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (البقرة: ١٤٤)، وتستعمل أيضًا للتكثير في موضع التمدح[١] كقوله تعالى:﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ (الأحزاب: ١٨)، وما ذكره الرضي يوحي بأنَّه يجعل من (التحقيق) المعنى المركزي لـــ (قد)، ولكن ما أراه غير ذلك؛ لأنَّ هذا المعنى قد يتخلى عن (قد) في بعض المواضع، ومعنى تخليها عن هذا المعنى يعني أنَّه ليس معنًى مركزيًا. والمعنى المركزي بحسب ما أراه هو (الإخبار)، وغالبًا ما يكون المخبر عنه مُحققًا، أو في حكم المُحَقق؛ لذا كان التحقيق أشهر معانيها الهامشية أو (ظلال معانيها المركزية)، وقد تنضم معانٍ هامشية أخرى مثل أن يكون المُخْبَر عنه متوقعًا، أو قليل الوقوع، أو كثير الوقوع.

وقد يصعب على الباحث التفريق بين المعنى المركزي والمعنى الظل؛ لأنَّ المعنى الذي يصل إلى المتلقي هو خليط من الإخبار والتحقيق، كقول الشاعر عمرو بن كلثوم: وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدُّ نُطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يَبِيْنَا [٢]

أمَّا معنى التوقع لـــ (قد) فقد جعله الرضي قسمًا قائمًا بنفسه تحت عنوان (حروف التوقع) [٣] ، وأشار المرادي[٤] ، وابن هشام[٥] ، كذلك إلى هذا المعنى

(١) الأستراباذي، ١٩٩٦م: ٤/٤٤٤-٤٤٥.
(٢) ديوان عمرو بن كلثوم، ١٩٩١م:٧٥.
(٣) الأسترأبادي، ١٩٩٦م: ٤/٤٤٤.
(٤) المرادي، ١٩٩٢م: ٢٥٤.
(٥) ابن هشام، ١٩٨٥م: ٢٢٧.

وجعلاه في مقدمة معانيها، وكأنَّي بهما أرادوا المعنى المركزي لها، أمَّا الدلالة على التوقع فواضحة في الفعل المضارع كقولهم: قد يُقْدِم الغائب اليوم، وهذا يعني أنَّ القدوم منتظر ومتوقع، أمَّا التوقع مع الماضي فأثبته الكثيرون، ونُسِب للخليل قولهم (قد فعل) لقوم ينتظرون الخبر(١). وأنكر بعضهم التوقع مع الماضي؛ لأنَّ التوقع انتظار الوقوع والماضي قد وقع، ورُدَّ عليه بأنَّه كان متوقعًا منتظرًا، قال الزمخشري في تفسير (قد) من قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ (المجادلة: ١): ((معناه التوقع؛ لأنَّ رسولَ اللهِ والمُجَادِلَة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها ويُنزلُ في ذلك ما يُفرجُ عنها)) (٢). والحقيقة أنَّ معنى التوقع فيها متأتيةٌ من السياق وهو معنًى ثانوي؛ لأنَّ إرادة الإخبار ما زالت قائمة في هذا الحرف، فعندما يقول المؤذن: (قد قامت الصلاة) يريد إخبار المتلقين بأنَّ وقتها قد حان، أمَّا المتلقون فقسمٌ منهم كان يتوقع ويترقب حلول الوقت، فجاءهُ الخبر بأنَّه قد حلَّ الوقت، وقسم آخر ربَّما كان مشغولًا غير ملتفتٍ إلى قرب حلول موعد الصلاة فيأتيه الإخبار بأنَّ الوقت قد حان، فالمعنى المراد في هذا النص القرآني ليس إبراز معنى التوقع بقدر ما هو يريد الإخبار عن وقت الصلاة. وما يؤيد أنَّ معنى التوقع ظلٌّ للمعنى المركزي وليس بمعنى مركزي أنَّ ابن هشام ينفي معنى التوقع لهذا الحرف، إذ له رأيٌ ثالث فيها وهو أنَّ (قد) لَا تفِيد التوقع أصلا، أمَّا فِي الْمُضَارع فَلِأَن قَوْلك: يقدم الْغَائِب، يُفِيد التوقع من دُونِ (قد) إِذْ الظَّاهِر من حَال الْمخبر عَن مُسْتَقْبل أَنه متوقع لَهُ. وَأمَّا فِي الْمَاضِي؛ فَلِأَنَّهُ لَو صَحَّ إِثْبَات التوقع لَهَا بِمَعْنى أَنَّهَا تدخل على مَا هُوَ متوقع لصَحَّ أَن يُقَال فِي: لَا رجلَ بِالْفَتْح، إِن (لَا) للاستفهام؛ لِأَنَّهَا لَا تدخل إِلَّا جَوَابا لمن قَالَ هَل من رجل، وَنَحْوه فَالَّذِي بعد (لَا) مستفهم عَنهُ من جِهَة شخص

(١) سيبويه، ١٩٨٨م: ٤/٢٢٣.

(٢) الزمخشري، ١٩٨٧م: ٤/٤٨٥.

آخر، كَمَا أَن الْمَاضِي بعد (قد) متوقع كَذَلِك وَعبارَة ابْن مَالك فِي ذَلِك حَسَنَة فَإِنَّهُ قَالَ: إِنَّهَا تدخل على مَاض متوقع وَلم يَقُلْ: إِنَّهَا تفِيد التوقع، وَلم يتَعَرَّض للتوقع فِي الدَّاخِلَة على الْمُضَارع الْبَتَّةَ وَهَذَا هُوَ الْحق[1] . أمَّا معنى التقريب لـــ (قد) فهو مع الماضي لتقربه من الحال، لهذا فهي تلزم كثيرًا معه إذا ما جاء الماضي حالًا نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ (الأنعام:١١٩)، وقد جعل الزمخشري التقريب المعنى الرئيس أو المركزي لهذا الحرف، قائلا :((ومن أصناف الحروف (حرف التقريب)، وهو(قد) يقرب الماضي من الحال إذا قلت: قد فعل، ومنه قول المؤذن: قد قامت الصلاة، ولابُدَّ فيه من معنى التوقع)) [2] ، جعله الزمخشريُّ حرف تقريب وألزمه تأدية معنى التوقع أيضاً فقولهم: قد قامت الصلاة، يعني قد حان وقتها في هذا الزمان. إنَّ معنى التقريب يتعلق بدخولها على الماضي، إذن فهو مرتبط بالسياق الذي ترد فيه (قد) وهي خارج ذلك السياق لا تدل على هذا المعنى، فإذا وردت مع المضارع لا تدل على التقريب. أمَّا إفادة التقليل لـ (قد) وأكثر من قال بهذا المعنى وصفه بأنَّه قليل الاستعمال ، نحو قولهم: قد يَجُودُ البَخِيلُ، وهذا يدل على تقليل وقوع الفعل من الفاعل، وعقَّب المراديُّ على هذا المعنى بقوله :((ونازع بعضهم في إفادة (قد) لمعنى التقليل، فقال:(قد) تدل على توقع الفعل ممن اسند إليه، وتقليل المعنى لم يستفد من (قد)، بل لو قيل: البخيلُ يَجُودُ، فهم منه التقليل؛ لأنَّ الحكم على من شأنه البخل بالجود إن لم يحمل على صدور ذلك قليلا كان الكلام كاذبا؛ لأنَّ آخره يدفع أوله))[3]، هذا الاعتراض الذي نقله المراديّ دقيقٌ ووجيهٌ ، وهو ما أذهب إليه في فرضية

(١) ابن مالك ١٩٦٧: ٢٤٢.

(٢) ابن يعيش، ٢٠٠١م: ٩٢/٥.

(٣) المرادي، ١٩٩٢م:٢٥٧-٢٥٨.

المعنى المركزي والمعاني السياقية فطبيعة الكلام وسياقه العام هو الذي أفادنا معنى التقليل، أمَّا الحرف (قد) فربما حُمِّلَ بعض معنى التقليل وأداه، لكنَّه أدَّاه ضمن معناه العام الذي هو الإخبار وفي ظله.

(يا):

حرفُ نداء البعيد حقيقةً أو حكماً، وهو المعنى المركزي الذي ذكره النحويون له، وهي أكثر حروفه استعمالاً، ولهذا لا يُقَدَّر عند الحذف سِواها نحو قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ (يوسف:٢٩)، ومع هذا قد يكتسبُ هذا الحرف معانياً أُخر، في سياقات مُعيَّنة، نذكر منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾ (النمل:٢٥)، وقد وردت (ألَّا) في الآية الكريمة بالتشديد، ووردت تخفيفاً عند الكسائي في إحدى القراءات [١]، فيكون المعنى على هذه القراءة مثلما ذكر مكي بن أبي طالب (ألْا يا هؤلاء اسجدوا... فـ (ألْا): حرف يفيد التنبيه، و يا على بابها: للنداء، وحذف المنادى؛ لدلالة حرف النداء عليه[٢] ، وذكر الزمخشري أنَّها قد ترد؛ لتفيد التوكيد المُؤْذِن بأنَّ الخطاب الذي تتلوه معتنى به جداً، أو قد ترد لتفيد التنبيه فتدخلُ على الفعلِ والحرفِ، مستشهداً بما ورد في قوله تعالى السابق[٣] . ويبدو أنَّهما قد تابعا الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي استشهد ببيت الأخطل:

يَاْ قَلَّ خيْرُ الغواني كيْفَ رُغْنَ به فَشُرْبُهُ وَشْلٌ فِيهِنَّ تَصريدُ [٤]

(١) ابن زنجلة، (د.ت):٥٢٦.

(٢) مكي، ١٤٠٥هـ: ٥٣٣/٢.

(٣) السيوطي، ١٩٨٨م: ٤٥٢/٣.

(٤) ديوان الأخطل،١٩٩٤م: ٧٨.

أراد: يا رجل قل يا خير الغواني[١] ، فما بين أصل معناها وظله، دار جدلاً واسعاً بين علماء النحو والتفسير، فقد ذكر الفرَّاء (ت٢٠٨هـ) أنَّها قد ترد للتنبيه مُستشهداً بما ورد عن العرب كقولهم: ألْا يا أرحمانا، ألْا يا تصدَّقا علينا، قال: يعنيني وزميليَّ، وكقول الأخطل:

ألْا يا اسلمي يا هنْدُ هنْدَ بني بدْر وإنْ كانا حيَّانا عِدَّي آخر الدهر[٢]

وقد فصَّل الخلاف الذي دار ما بين البصريين والكوفيين حول دلالة (يا) في هذه الآية الكثير من الباحثين المعاصرين ومنهم [٣] فما ذهب إليه البصريون فيما ورد من أمثلة كما في الآية السابقة أو ما استشهدوا به من مرويات شعريَّة أو نثرية فتوجيه ذلك عندهم أنَّ (يا) زائدة للتنبيه، أمَّا الفعل بعدها فعلى وجه الأمر، كأنَّه قال لهم في الآية الكريمة: اسجدوا، وزاد (يا) بينهما، بعد حذف همزة الوصل، وحذف ألف (يا)؛ لأنَّها ساكنة فلقيت السين فصار: ألْا يسجدوا، أمَّا ما ورد من الكوفيين فـ (يا) عندهم للنداء التي يكتفى بها عن الاسم، فتقول: يا اقبل، وزيد اقبل [٤] . وذهب النَّحاس (ت٣٣٨هـ) إلى أنَّ قراءة التخفيف على حذف المنادى أي: (ألْا يا هؤلاء اسجدوا لله)، كما في قول الشاعر:

وَقَالَتْ: أَلَا يَأْ اسْمَعْ نَعِظْكَ بِخُطَّةٍ فَقُلْتُ سَمِعْنا فَانْطِقِي وَأَصِيْبِي [٥]

أراد: وقالت يا هذا اسمع، فحذف (هذا).

---

(١) الفراهيدي، ١٩٩٥م: ٢٣٠.

(٢) ديوان الأخطل،١٩٩٤: ١١٠.

(٣) عرسان والقيسي، ٢٠٢٠م: ٢٥.

(٤) الطبري، ٢٠٠١م: ٤٢/١٨.

(٥) ديوان النمر بن تولب، ٢٠٠٠م: ٤٥.

والمعنى: يا هؤلاء لعنة ... فعلى هذه القراءة هي سجدة، وعلى القراءة الأولى ليست بسجدة؛ لأنَّ المعنى: (وزيَّنَ لهم الشيطان أن لا يسجدوا) ، والكلام على القراءة الأولى مُتَّسقٌ في حين أنَّ الكلام في القراءة الثانية قد اعترض فيه شيءٌ ليس منه، لقد اعترض النَّحَّاس على قراءة التخفيف وعدَّها قراءة بعيدة؛ لكون الكلام مُعْتَرِضاً، على الرغم من وجود هذا التركيب في شواهد كثيرة إلا أنَّه غير معتاد أن يقال: يا قَدِمَ زيدٌ؛ لما في ذلك من إخلال في التراكيب[1] ، أمَّا ابن خالويه فذكر حجةً من خفَّفَ وهي أنَّه جعل (ألْا) تنبيهاً واستفتاحاً للكلام، ثُمَّ نادى بعده فاجتزأ بحرف النداء من المنادى؛ لإقباله عليه وحضوره، فأمرهم حينئذٍ بالسجود، والعرب تفعل ذلك كثيراً، كما ذكر[2] . أمَّا أبو حيَّان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) فعقَّبَ على قراءة التخفيف بقوله: وليس بشيء قول من قال: إنَّ معناها: ألْا لَيَسْجُدوا، فَحُذِفَ لام الأمر، وبقي الفعل مجزوماً، لأنَّه قد روي عن الكسائي، أنَّ القارئ بروايته إذا اضطر على الوقف على الياء يقف بالألف، ويبدأ بعدها (أُسجدوا) بضم الهمزة، فَعُلِمَ بذلك أنَّه فعلُ أمرٍ قبله (يا)، وقد جعل بعض النحويين (يا) في مثل هذا لمجرد التنبيه دون قصد نداء مثل (ها) ومثل (ألا) الاستفتاحية[3] . وأمَّا من يرى عدم جواز حذف المنادى كابن جني (ت٣٩٢هـ) وغيره، فعندهم أن (يا) ليست للنداء في مثل هذا التركيب وإنَّما هي حرف أكَّد به (ألْا) التي هي للافتتاح يقول ابن جني: ((ألْا هذه فيها هنا شيئان: التنبيه وافتتاح الكلام، فإذا جاءت معها (يا) خلصت افتتاحاً لا غير، وصار التنبيه الذي كان فيها لـ (يا) دونها، ... ومن ذلك (يا) في النداء؛ تكون تنبيها ونداءً في نحو: يا زيد، ويا عبد

(١) النحَّاس، ١٤٠٩هـ: ١٢٧/٥.

(٢) ابن خالويه، ١٤٠١هـ: ٢٧١.

(٣) الأندلسي، ٢٠٢٤م: ١٥٩/١٠.

الله، وقد تجرد من النداء للتنبيه البتة)) [١] ، والتفت السمين الحلبي إلى مسألة مهمة تتعلق بهذا التركيب، وهي كيف يجمع بين حرفين لمعنى واحد، قال بعد أن رجَّح معنى التنبيه لـ (يا): ((والمرجَّحُ أَنْ تكونَ للتنبيهِ؛ لئلا يُؤَدِّيَ إلى حَذْفٍ كثيرٍ مِنْ غيرِ بقاءِ ما يَدُلُّ على المحذوفِ. ألا ترى أنَّ جملةَ النداءِ حُذِفَتْ، فلو ادَّعَيْتَ حَذْفَ المنادى كَثُرَ الحذفُ ولم يَبْقَ معمولٌ يَدُلُّ على عامِلِهِ، بخلافِ ما إذا جَعَلتَها للتنبيهِ. ولكنْ عارَضَنَا هنا أنَّ قبلَها حرفَ تنبيهٍ آخرَ وهو (ألا). وقد اعْتُذِرَ عن ذلك: بأنه جُمِع بينهما تأكيداً)) [٢] .

وما يبدو لي في ضوء ما جاء من آراء بخصوص القراءتين حول هذه الآية المباركة أنَّ لـ (يا) معنيين:

الأول: المعنى الأصلي (المركزي) لـ (يا) وهو النداء.

الثاني: المعنى الفرعي (ظل المعنى) لـ (يا)، وهو التنبيه.

وكلا القراءتين متواترتين ومستفيضتين في الأمصار، مع جلاء المعنى لكل قراءة منهما وفق ما أورده علماء العربية من أدلة وبراهين وشواهد.

---

(١) ابن جني، د.ت: ١٩٨/٢.

(٢) السمين الحلبي، د.ت: ٥٩٨/٨-٥٩٩.

المبحث الثَّاني

حروف المعاني الثلاثيّة

(ثُمَّ):

أشهر ما قيل في (ثُمَّ) إنَّه حرفٌ يفيد التشريك في الحكم، والترتيب، والمهلة، وقد سيطرت هذه المعاني الثلاث على هذا الحرف عند أغلب النحويين، ولم يلتفت أحدٌ منهم إلى معناها الرابع وهو إفادتها (معنى الإبتداء) الذي كاد ينسى ولم يذكر. والحقيقة أنَّ الحمل على هذا المعنى يُجَنّبنا الكثير من الإشكالات والتأويلات المتكلفة. إنَّ دلالة (ثُمَّ) المركزية هو الترتيب مع التراخي أي: مع مهلة زمنية، وهذا المعنى هو الأكثر شيوعا في استعمالاتها وهذا المعنى ملازمٌ لها دومًا. نحو قولهم: قام زيدٌ ثُمَّ عمرو، وهذا يعني قيام عمرو بعد زيد بعد مهلة من الزمن، وهذا هو مذهب الجمهور، وما أوهم خلاف ذلك تأولوه[1] . وقد يتخلى الحرف(ثُمَّ) عن معناه المركزي وهو دلالته على الترتيب المتراخي في بعض المواضع، يقول الإربلي: ((وقد تأتي معراة عن إفادة التراخي، بل لمجرد الترتيب في الذكر، والتدرج في درجات الارتقاء)) [2] ، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (الزمر: ٦)، فهذا الجعل كان قبل خلقنا، وقد ذُكِر لـــ (ثُمَّ) عددٌ من المعاني في هذه الآية نذكرُ منها:

١- إنَّها معطوفة على محذوف والتقدير: من نفس واحدة أنشأها ثُمَّ جعل زوجها، وإلى هذا ذهب ابن هشام [3] .

---

(١) الزجَّاجي، ١٩٨٤م:١٦ و الرمَّاني، ١٤٢٥هـ: ١١٩ و ابن فارس، ١٩٩٧م: ١٠٥.

(٢) الإربلّي، ١٩٩١م:٣٦٤.

(٣) ابن هشام، ١٩٨٥م: ١٥٩.

٢- إنَّها لترتيب الإخبار لا لترتيب الحكم، كما يقال: بلغني ما صنعت اليوم ثُمَّ ما صنعت أمس أعجبُ، وإلى هذا ذهب الفرَّاء[١] .

٣- وللفراء في (ثُمَّ) مذهبٌ آخر وهو أنَّها تفيد الاستئناف في هذه الآية قائلًا: ((وفيه وجه آخر: أن تجعل (ثُمَّ) خبرًا مستأنفًا، وقد تستأنف العرب بـ (ثُمَّ) والفعل الَّذِي بعدها قد مضى قبل الفعل الأول، من ذَلِكَ أن تَقُولُ للرجل: قد أعطيتك ألفًا ثُمَّ أعطيتك قبل ذَلِكَ مالا، فتكون (ثُمَّ) عطفًا عَلَى خبر المخبر كأنه قَالَ: أخبرك أني زرتك اليوم، ثُمَّ أخبرك أني زرتك أمس))[٢] .

٤- إنَّ العطف بـ (ثَّم) على الآية الأولى، للدلالة على مباينتها لها فضلا ومزية، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخي في الحال والمنزلة، لا من التراخي في الوجود، وهذا ما ذهب إليه الزمخشري[٣] .

وخلاصة هذه الأقوال: إنَّ النص قد لا يلحظ فيه الترتيب، أو يلاحظ فيه الترتيب في مرحلة ثانية في الدلالة، فيستغنى عن جزء من دلالة الحرف، وتأوَّل بعض العلماء أوجها لقصر النص على العودة إلى الدلالة بكامل معناها، وقد يكون في هذا تعسفٌ، فمثلما تكون إضافة بعض معاني الظل للمفردات مزية فنيَّة للكلام، فإنَّ اجتزاء بعض المعنى من مفردةٍ ما مزية أخرى من مزايا الكلام البليغ.

ومن شواهد تخلي الحرف (ثُمَّ) عن المهلة الزمنية نذكر قول الشاعر مثلًا:

كَهَزِّ الرُّدَيْنِي بَيْنَ الأَكُفَ جَرَى فِي الأَنَابِيبِ ثُمَّ اضْطَرَب[٤]

---

(١) الفرَّاء، د.ت: ٢/٤١٥.

(٢) الفرَّاء، د.ت: ١/٣٩٦.

(٣) الزمخشري، ١٩٨٧م: ٤/١١٤.

(٤) ديوان الإيادي،٢٠٠١م: ٥٩.

ومعنى البيت أنَّه متى ما هُزَّ الرديني جرى الهز في أنبوب الرمح فيعقبه الاضطراب، فهنا لا مهلة بين الهز والاضطراب، وتفسير ذلك أنَّ غاية مُنشئ النص هنا هو ترتيب الأحداث فحسب أكثر ما تكون الإشارة إلى المهلة في وقوع تلك الأحداث، وهكذا تبقى الدلالة المركزية لــ (ثُمَّ) دلالتها على الترتيب بمهلة، ولا يمنع هذا من أن يضطرها السياق من التخلي عن بعض معناها في نصوص معينة.

(إلى):

وهو حرفٌ جر ثلاثي البنية، أكثر النحويين على أنَّ معناه المركزي يفيد انتهاء الغاية، سواءٌ أكانت مكانية أو زمانية، وكلُّ المعاني الأخرى التي وردت في استعمال هذا الحرف راجعةٌ إليه، إمَّا بتأويل لفظ، أو استعمل فيه على سبيل التضمين من باب التوسع، يقول المرادي: ((واعلم أن أكثر البصريين لم يثبتوا لها غير معنى انتهاء الغاية. وجميع هذه الشواهد عندهم متأول)) [1] .

واختلف النحويون فيما إذا كان ما بعد (إلى) داخلٌ فيما قبلها على مذهبين[٣]:

الأول: إنَّه يدخل، واستدلوا بقضايا عرفية تعارف عليها الناس فإذا قلت: اشتريت الشقةَ إلى طرفها، فالطرف داخلٌ في الشراء.

الثَّاني: إنَّه لا يدخل، واستدلوا بأنَّ القائل: اشتريتُ الموضع من الوادي إلى الوادي، يريد أنَّ الوادي لا يدخل في الشراء. وذهب بعضهم إلى أنَّ الثاني إذا كان من جنس الأول دخل نحو: اشتريت الغنم إلى آخرها، وإن لم يكن من جنسه فلا يدخل، نحو

---

(١) المرادي، ١٩٩٢م: ٣٨٩.

(٢) المالقي، ١٣٩٤هـ: ٨٠-٨١.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ (البقرة: ١٨٧)، إلَّا أنَّ من عُرْفِ الشرع والعادة ومن قواعد الصيام يحمل قوله تعالى السابق. وذكر المالقي إلى أنَّ بعض النحويين يرى أنَّ (إلى) إذا دخل ما بعدها بما قبلها كانت بمعنى (مع) وعليه قوله تعالى:﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ (النساء: ٢)، وكون (إلى) بمعنى (مع) قاله الفرَّاء مُفسِّرًا قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ (آل عمران:٥٢) أي: مع الله ... قال: وهو وجه حسن[١] ، أمَّا الزجَّاج فذهب إلى أنَّ (إلى) هنا قاربت (مع) معنًى ذلك بأنَّ صار اللفظ لو عُبِّرَ عنه بـــ (مع) أفاد مثل هذا المعنى، لا أنَّ (إلى) معناها (مع)؛ لأنَّ (إلى): غاية، ومع: تضم الشيء إلى الشيء، فمعنى الآية يكون: من يضيف نصرته إيَّايَ إلى نصرة الله، فقولهم: إن (إلى) في معنى (مع) ليس بشيء، والحروف قد تقارب في الفائدة، فيظنُّ ظان أنَّ معناهما واحد[٢] . وكأنَّ الزجاج لاحظ في (إلى) ظلالًا معنوية تقربُّها من معنى (مع) وذلك عندما قال: قاربت (مع) معنِى. وذهب كلٌّ من ابن النحَّاس[٣] إلى أنَّ (إلى) في الآية على بابها مُضمنين الأكل معنى الإضافة والضم أي: لا تضيفوا أموالهم وتضموها إلى أموالكم في الأكل. وجمع القرطبي بين القولين إذ لا تناقض بينهما فالمعنى المستفاد من كلا القولين واحد، وقد فسَّر القرطبي الآية: ولا تخلطوا أموالهم بأموالكم فتأكلوها مع أموالكم [٤] .

---

(١) الفرَّاء، د.ت: ١/٢١٨.

(٢) الزجَّاج، ١٩٨٨م:١/٤١٦.

(٣) النحَّاس، ١٤٠٩هـ: ١/٤٠٥، ابن عطيَّة، ١٤٣١هـ: ٢/٦، القرطبي، ١٩٦٤م: ١/٣٨٠.

(٤) الطبري، ٢٠٠١م:٧/ ٥٢٨.

ومنشأ هذا الإشكال ابتداءً أنَّ الفعل (تأكلوا) لا يُعَدَّى بـــ (إلى) لذلك ذهب قسمٌ من العلماء بأنَّ معناه (مع) على الإبدال، وذهب آخرون إلى التضمين أي أنَّ الفعل (تأكلوا) ضُمّن فعلا يُعَدَّى بالحرف (إلى) ليستقيم الكلام أولًا ولتوسيع المعنى ثانيًا. ويمكن تخريج الآية أيضًا على وفق مذهبٍ ثالث وهو: ((أنَّ الفعل باقٍ على بابه ومعناه، لكنَّهُ يُعَدَّى بحرف مُعيَّن لغرض مُعَيَّن، أي: لإيصال معنًى مُعَيَّن يؤدي الحرف جزءًا منه عن طريق معناه المركزي وما يحمله السياق إيَّاه من معنًى مضاف إلى ذلك المعنى)) [1] . فالآية إذا ما فسرت فيها (إلى) بمعنى (مع) أحاطت بها ظلالٌ معنوية توحي بأن هناك ناصرًا آخر مع الله من البشر وهذا غير المراد والله أعلم. ومن هنا نرى أنَّ بعض النحويين من البصريين صرح بأن التحقيق بهذا المعنى: أي معنى (مع)، يرجع به إلى معنى الانتهاء[2] ، وهو المعنى المركزي لهذا الحرف. وبهذا التوجيه وفي ضوئه فَسَّرَ الآية الكريمة فذكر أنَّ الآية عبَّرت بالأكل وكانت تريد أوجه النفع المختلفة التي يتمكن الإنسان بها من الاستحواذ على مال اليتيم ، وتعبيرُ الآية عن هذا المعنى بالأكل لتُصَوِّرَ لنا بشاعة ذلك العمل، أمَّا تعدية أكل بـ (إلى) في الآية فهو مقصودٌ بلا ريب، فالآية الشريفة تريد : أنكم تأخذون أموالهم لتضموها إلى أموالكم ، فأنتم أصحابُ أموال ولستم فقراء ، وإلاَّ لو كانوا فقراء فقد جوز لهم القرآن الكريم في موضع آخر أن يأكلوا من أموال اليتامى بالمعروف ، فقد قال تعالى بعد بضع آيات: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء من الآية :٦) ، ففي هذه الآية الكريمة المعنى المراد بالأكل ليس هو نفسه المراد في الآية المتقدمة (النساء :٢) ، فهنا يراد به الأكل المتعارف الذي يقيم به الإنسان حياته، أما في تلك

---

(١) الطيَّار، ٢٠٠٥م: ١٣٣.

(٢) ابن فارس، ١٩٩٧م:٩٢.

الآية فالمراد به استحواذ الأغنياء على أموال اليتامى إسرافا وبدارا أن يكبروا لينتهوا بها إلى أموالهم .

فتفسير المعنى من هذه الزاوية وعلى وفق هذه الرؤية أراه أكثر حيويَّة ، ويشعرنا بالحركة التي يتميز بها النص القرآني، ويبعده عن الجمود لو فُسِّرَ في ضوء نظرية البصريين المعتمدة على التضمين، أو نظرية الكوفيين إبدال الحروف بعضها محل بعض متى ما وجدوا إخلالًا في التركيب اللغوي، إذ قد يكون الخروج ((عن مقتضى الظاهر في صيغ الألفاظ أحيانًا نهجٌ مسلوك في لغة العرب وفن من فنون البلاغة والفصاحة والبيان)) [١] .

وعلى هذا يمكن القول إنَّ (إلى) باقيةٌ على معناها دالَّة على انتهاء الغاية ، وَحَمَّلها السياقُ معنى إضافيا وظلًا معنويًا هو دلالتها على الجمع، إذ ستجمع أموال اليتامى مع أموال الأغنياء، وإبقاء الفعل (تأكلوا) على دلالته الأصلية يكون أكثر خدمة للنص في تصوير المعنى المراد.

(**على**):

لم يختلف النحويون في أصل دلالة هذا الحرف؛ إذ أجمعوا على أنَّه يفيد الاستعلاء حسًا وحقيقةً كقوله تعالى:﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ (الرحمن: ٢٦)، أو حكمًا ومعنًى كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، ولم يثبت لها أكثر البصريين غير هذا المعنى، وتأولوا ما أوهم خلافه [٢] . وقد يأتي الحرف (على) ليؤدي معانيًا أخرى غير الاستعلاء منها: المعيَّة أو المصاحبة بمعنى (مع) وللتوضيح نسوق آيتين من آيات الله كشاهد لما نراه:

---

(١) يحيى، ٢٠٠٧م: ٢٢٧.

(٢) المرادي، ١٩٩٢م: ٤٧٦.

١ □ المصاحبة والمعيَّة بمعنى (مع): ولنقف عند قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ (الإنسان: ٨). أي: (مع حبه) وهو مذهبٌ كوفي[١] . لنرى كيف أنَّ ذلك الظل المعنوي للحرف (على) وهو معنى المصاحبة جاء متوافقًا لمعناه المركزي (الاستعلاء)؟ وكيف أسهم في إضافة معانٍ إضافية له؟ لقد اختلف النحويون والمفسرون في عودة الضمير في (حبه) إذ يرى الطبري أنَّ الضمير من قوله تعالى: (على حبه) يعود على الطعام فقال: كان هؤلاء الأبرار على حبِّهم إياه، وشهوتهم له[٢] أي للطعام، ومثل هذا ذهب أبو إسحاق الزجَّاج إذ قال: هذه الهاء تعود على الطعام، المعنى يطعمون الطعام أشدُّ ما تكون حاجتهم إليه[٣] .

أمَّا أبو إسحاق الثعلبي فقد نقل عن الداري أنها تعود على الله، ونقل أيضاً عن الحسين بن الفضل أنَّها تعود على المصدر أي: على حبِّ إطعام الطعام [٤] .

وحاصل ما ذكروه عن عود الضمير في هذه الآية: إنَّه يعود على الطعام وهو أظهرها وهو من باب الإيثار.

إنَّه يعود على حب الإطعام من دون منّة ولا تكدير وعن طيب نفس وهو من باب الإحسان؛ لأن الفعل مذكور فيمكن أن يعود الضمير على مصدره وإن لم يذكر المصدر كقوله تعالى:﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٨).

إنَّه يعود على حب الله وهو وجه محتمل وهذا من باب الإخلاص.

---

(١) الأندلسي، ٢٠٢٤م: ٢٣١/١١.
(٢) الطبري، ٢٠٠١م: ٩٧/٢٤.
(٣) الزجَّاج، ١٩٨٨م: ٢٥٩/٥.
(٤) الثعلبي، ٢٠٠٢م: ٩٦/١٠.

واختلاف عائديَّة الضمير لا يغيِّر من معنى الحرف كثيرا، فالسياق وما يحمله من ظلالٍ معنويَّة بسبب اختلاف عودة هذا الضمير الجائزة والمحتملة لما تقدَّمه، يضيف معنى جديدًا لمعناه المركزي (الاستعلاء)، فيحتمل أن يضاف إلى معنى الحرف المركزي قدرا مضافا من المعنى هو المصاحبة ، فالإنفاق مصاحبٌ لشيءٍ ما إما: حُبِّ المال، أو حُبِّ الإتيان، أو حُبِّ الله تعالى. وإذا أردنا أن نُرجع الضمير إلى المال يكون المعنى: (آتى المال متعاليا بالإتيان فوق حبِّه للمال)، وهذا التعالي لا يمنع من المصاحبة بين الإتيان وحب المال، أما إذا أردنا أن نرجع الضمير إلى لفظ الجلالة فيكون معنى المصاحبة أبرز وأوضح إذ يكون المعنى:(آتى المال متعاليا مع حبَّه لله تعالى) أي تعالت نفسه مع ما يقتضيه الحب الإلهي فآتى المال، وإذا أعدنا الضمير إلى الإتيان يكون المعنى:(آتى المال متعاليا مع حبِّه للإيتاء) أي مع ما يقتضيه حب الإيتاء، وروح التعاون الإنسانية فقد أنفق ماله .

إنَّ معنى المصاحبة الهامشي الذي يرافق المعنى المركزي لا يكون على درجة واحدة من الظهور والبروز، ففي كل تقدير من التقديرات الثلاثة المتقدمة كان المعنى الهامشيّ إما يَقوىَ، أو يَضعُف وكان في أكثرها بروزا عندما قَدَّرنا عودة الضمير إلى لفظ الجلالة فأضحى معنى المصاحبة واضحا جليا، وهنا تكمن إحدى مزايا المعاني الهامشية أو (ظلال معناه) : أنها معان متحركة مع النص تقوى حينا وتفتر آخر بحسب متطلبات التفسير لكل نصٍّ من النصوص .

ومما حمل على معنى المصاحبة قوله عَزَّ شَأنُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦﴾ (الرعد:٦) أي: مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب[1] . إنَّ المعنى المركزيّ هنا واضح وإن كان معنى المصاحبة الهامشي يُمكن أن يُفهَم من

(١) الطبرسي، ٢٠١٨: ٣/١١٠.

السياق، فالله تعالى شأنه ذو مغفرةٍ متعالٍ فوقَ تصرفات الناس وظلمِهم، وهذه المغفرةُ مع وجود الظلم فهي تصحبه، وسعة رحمة الله ورأفته بالعباد لم تشترط أن يتخلى الناس عن الظلم ويتركوه لتنالهم الرحمة الإلهية، بل هي تعمُّ المؤمن والظالم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (النحل:٦١)، فمعنى الاستعلاء واضحٌ جليٌّ، ويرافقه معنى المصاحبة. ولو كنا نقول بالتناوب كما يقول الكوفيون لتخلينا عن معنى الاستعلاء، وحفظنا معنى المصاحبة فقط، وفي هذا اقتطاع لجزء حيويٍّ مهمٍ من المعنى لا يمكن التخلي عنه، فلو قلنا إن ربك لذو مغفرة للناس مع ظلمهم فلسائل أن يسأل عن سبب المغفرة مع الظلم وما الذي يقتضيها، أهو ضَعفٌ ؟ أم غفلةٌ ؟ أم تهاونٌ ؟ أم تعالي الذات المقدسة عن العجلة والرأفة بالعباد؟ وهنالك الكثير من الأسباب . في حين تستطيع نظرية المعنى الهامشي أو ظلاله أن تحفظ لنا الجواب، وتطرحه مع النص مباشرة، وتمنع مثل تلك الحيرة عند المتلقي، فالله تعالى شأنه متعالٍ عن الناس، وإن كانوا ظالمين، وبيَّنت القرائن المساعدة للنص سبب ذلك كما في آية النحل .

ومن المعاني الأخرى التي حمل عليها (على): التعليل[1] ، نحو قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (الحج:٣٧) ، أي لهدايته إياكم، وربما خرَّجَ بعضُ البصريين المعنى على التضمين مثلما ذكر الزمخشريُّ: لتكبروا ضُمّن معنى تشكروا وعُدِّي تعديته[2] . **أقول:** يمكن أن يكون التعليل معنى هامشيا في هذه الآية فهنالك قدرٌ من الاستعلاء ملحوظٌ، فقد سخَّر الله الأنعام للإنسان ليصل بها إلى مناسك الحج ، وهذا يقتضي الشكر والتكبير، فيكبر الله

(١) الزركشي، د.ط: ٤/٢٨٤.

(٢) الزمخشري، ١٩٨٧م: ٣/١٥٩.

تعالى مرتفعا بالتكبير فوق الحمد على الهداية لدينه فقط ، بل يكبِّرُ الله حمدا له على الهداية لدينه وحمدا على تسخيره هذه الأنعام وتمكينه منها.

وقد قيل في الحرف (على) معانٍ أخرى، ولكن بهذا القدر من المعاني نكتف؛ إذ ليس الغاية من هذا البحث استقصاء معاني هذا الحرف أو الذي سبقه، بل إنَّ هدفنا هو إثبات أنَّ لكل حرف ظلالًا تحيط بمعناه المركزي المفترض كما قدَّمنا.

خاتمة البحث وأهم نتائجه:

لقد كان من شأن بحثنا الذي بين أيدينا أن يخوض في مسألة تتعلق بإشكالية محددة من حروف المعاني، وهي عندما تكسر هذه الحروف قاعدة مهمة من قواعد اللغة وأحد أهم أركانها الرئيسة، وفي شواهد قرآنية وشعرية ونثرية كثيرة قيلت في عصور الفصاحة والبلاغة، إذ قد يُعدَّى الفعل بحرف هو ليس له في الكثير من الاستعمالات اللغويَّة، وعالج القدماء هذه الإشكالية في ضوء نظريتين معتمدتين: إحداها كوفية ترى إمكانية تناوب الحروف، وثانية بصريَّة وترى إمكانية أن يشرب ذلك الفعل معنى فعل آخر يتعدَّى بذلك الحرف. أمَّا في العصر الحديث وفي ضوء نظريات علم الدلالة المعاصر التي عالجت قضية المعنى، والمعنى المركزي وما يحيله من ظلال معنويَّة تقع في دائرته فتكسبه معانٍ إضافية أخرى. فقد طبقَّنا هذه الفرضية على هذا النوع من الاستعمالات العربية الفصحى على ستٍّ من حروف المعاني، ثلاثة منها ثنائية والثلاثة الأخرى ثلاثية، وما يحمله كل حرفٍ منها من دلالة مركزية ودلالات أخرى بمثابة الظلال له بحسب سياقات معيَّنة.

وقد توصلنا في ضوء الدراسة إلى **نتائج منها**:

١- إنَّ البحث اللغوي في حروف المعاني كان وما يزال متجددًا أبدًا، فهو لا يقف عند حدٍ معيَّن ما دامت لغتنا حيَّة ومتطورة.

٢- تبيَّن لنا في ضوء الدراسة أنَّ هناك ظلالًا للمعنى المركزي غالبًا ما يكون مصاحبًا له؛ ليكسبه أبعادًا دلالية إضافية، تجعل من النص القرآني، أو الشعري، أو النثري متحركًا لا جامدًا، متجددًا لا ساكنًا.

٣- إنَّ ظلال تلك المعاني المركزيَّة نتلمسها في ضوء سياقات مُعيَّنة يحملها النص.

٤- لا شكَّ أن متابعتنا لما طرح من أنَّ هناك نظريَّة تقف بديلًا مناسبًا أو إضافيًا لما قرَّره علماء النحو سابقًا بنظرية تبادل الوظائف الدلالية للحروف أو نظرية إشراب الفعل معنًى آخر يتعدَّى بذلك الحرف، أقول: لا شكَّ أنَّها إضافة جادة تستحقُّ البحث والتأمل والنقاش.

المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

١- الأخفش، سعيد بن مسعدة (ت٢١٥هـ): معاني القرآن، تحقيق: د. عبد الأمير محمد أمين الورد، ط/١-١٩٨٥م، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

٢- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢هـ): الخصائص: تحقيق: د. محمد علي النجار، ط/٤ - (د.ت)، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.

٣- ابن خالويه، الحسين بن أحمد (ت٣٧٠هـ): الحجَّة في القراءات السبع، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، ط/٤-١٤٠١هـ، دار الشروق، بيروت، لبنان.

٤- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (ت٣٢١هـ): جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، ط/١-١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

٥- ابن عبَّاد، الصاحب إسماعيل (ت٣٨٥هـ): المحيط في اللغة، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، ط/١-١٩٩٤م، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

٦- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن تمام الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط/١-١٤٣١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٧- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا القزويني الرازي (ت٣٩٥هـ): الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ط/١-١٩٩٧م، محمد علي بيضون، القاهرة، مصر.

٨- ابن هشام، أبو محمد جمال الدين (ت ٧٦١هـ): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ط/٦-١٩٨٥م، دار الفكر، دمشق، سوريا.

٩- ابن يعيش، أبو البقاء موفق الدين الأسدي الموصلّي (ت٦٤٣هـ)، شرح المفصل ، تحقيق: د. أميل بديع يعقوب، ط/١-٢٠٠١م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٠- ابن مالك، جمال الدين (ت٦٧٢هـ): تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تحقيق: محمد كامل بركات، د.ط/ ١٩٦٧م، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر.

١١- الإربلّي، علاء الدين بن علي (ت٦٣١هـ): جواهر الأدب في معرفة كلام العرب (معجم للحروف العربية)، تحقيق: د. أميل بديع يعقوب، ط/١-١٩٩١م، دار النفائس، بيروت، لبنان.

١٢- الأستراباذي، رضي الدين محمد بن حسن (ت٦٨٨هـ)، شرح الرضي على الكافية: تحقيق: يوسف حسن عمر، ط/٢-١٩٩٦م)، جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا.

١٣- الأندلسي، أبوحيان محمد بن يوسف أثير الدين (ت٧٤٥هـ): ارتشاف الضَرَب من لسان العرب، تحقيق: رجب عثمان محمد، ط/١-١٩٩٨م، مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٤- الأندلسي، أبو حيَّان محمد بن يوسف أثير الدين (ت٧٤٥هـ): التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق: د.حسن هنداوي، ط/١-٢٠٢٤م، دار القلم، دمشق.

١٥- الثعلبي، أحمد أبو إسحاق (ت٤٢٧هـ): الكشف والبيان (تفسير الثعلبي)، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، ط/١-٢٠٠٢م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

١٦- ديوان الأخطل، شرحه وصنف قوافيه وقدَّم له: مهدي محمد ناصر الدين، ط/٢-١٩٩٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٧- ديوان امرؤ القيس، ضبطه وصححهُ: الأستاذ مصطفى عبد الشافي، ط/٥-٢٠٠٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٨- ديوان الإيادي، أبو داؤد، جمعه وحققه: أنوار محمود الصالحي وأحمد هاشم السامرائي، ط/١-٢٠١٠م، دار العصماء، دمشق، سوريا.

١٩- ديوان زهير بن أبي سلمى، اعتنى به وشرحه: حمدو طمَّاس، ط/٢-٢٠٠٥م دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٢٠- ديوان عبيد ابن الأبرص، شرح: أشرف أحمد عدرة، ط/١-١٩٩٤م، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٢١- ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق، د. أميل بديع يعقوب، ط/١-١٩٩١م، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٢٢- ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدَّم له: الأستاذ علي فاعور، ط/١-١٩٨٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٣- ديوان النمر بن تولب العُكلي، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، ط/١-٢٠٠٠م، دار صادر، بيروت، لبنان.

٢٤- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي فخر الدين، (ت ٦٠٦هـ): التفسير الكبير، ط/٣-١٤٢٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٢٥- الراغب، أحمد عبد السلام: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ط/١-٢٠٠١م، فصلت للدراسات والترجمة والنشر، حلب، سوريا.

٢٦- الرمَّاني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت٣٨٤هـ): رسالة منازل الحروف، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي (د. ت)، دار الفكر، عمَّان.

٢٧- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت٣٨٤هـ): معاني الحروف، تحقيق: الشيخ عرفان بن سليم العشا حسونة الدمشقي، د.ط/ ١٤٢٥هـ، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.

٢٨- الزجَّاج، أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل (ت ٣١١هـ): معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط/١- ١٩٨٨م، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

٢٩- الزجَّاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي التهاوندي (ت ٣٣٧هـ): حروف المعاني والصفات، تحقيق: علي توفيق الحمد، ط/١-١٩٨٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٣٠- الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (ت٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د. ط)، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، بيروت، لبنان.

٣١- الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد (ت٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: مصطفى حسين

أحمد، ط/٣-١٩٨٧م، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٣٢- السامرائي، عباس محمد (١٩٨٧م): دراسة في حروف المعاني الزائدة، مطبعة جامعة بغداد، ط/١-١٩٨٧م.

٣٣- السمين الحلبي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم (ت٧٥٦هـ): الدرُّ المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، (د. ت)، دار القلم، دمشق.

٣٤- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ): الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط/٣-١٩٨٨م، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.

٣٥- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، جوامع الجامع (ت٥٤٨هـ)، تحقيق: جواد السيد كاظم الحكيم، ط/١-٢٠١٨م، راجعه واعتنى بنشره، قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية، دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع، العراق.

٣٦- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط/١-٢٠٠١م، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، مصر.

٣٧- عمر، أحمد مختار: معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي، ط/١-٢٠٠٨م، عالم الكتب، القاهرة، مصر.

٣٨- الفرَّاء، يحيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ): معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ود. محمد علي النجار، ود. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ط/١-(د.ت)، دار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر.

٣٩- الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت١٧٠هـ):كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزمي، د. إبراهيم السامرائي، ط/١-١٩٨٥م، دار ومكتبة الهلال، بغداد، العراق.

٤٠- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش، ط/٢-١٩٦٤م، دار الكتب المصرية، القاهرة.

٤١- المالقي، أحمد بن عبد النور (٧٠٢هـ)، رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق: أحمد محمد الخرَّاط، ط/١-١٣٩٤هـ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، حلب، سوريا.

٤٢- المُبَرِّد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت٢٨٥هـ): المقتضب، تحقيق: د. محمد عبد الخالق عضيمة، (١٩٦٣م)، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

٤٣- المرادي، بدر الدين حسن بن قاسم (٧٤٩هـ): الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، ط/١-١٩٩٢م. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤٤- النحَّاس، أبو جعفر (ت ٣٣٨هـ): معاني القرآن: تحقيق: محمد علي الصابوني، ط/١-١٤٠٩هـ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية.

٤٥- الورد، عبد الأمير محمد أمين: منهج الأخفش الأوسط في الدراسة النحوية، ط/١-١٩٧٠م، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، بغداد، العراق.

٤٦- الوقَّاد، خالد بن عبد الله الأزهري، شرح التصريح على التوضيح، ط/١-٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

البحوث والدراسات:

عرسان، أحمد مشرف، والقيسي، أحمد سعود متعب (باحثان من كلية العلوم الإسلامية/ جامعة بغداد):

التوجيه النحوي للحروف والأدوات: ، مجلة الآداب، ملحق العدد رقم (١٣٤)، أيلول، ٢٠٢٠م.

الرسائل العلمية والأطاريح:

١-خضير، مؤيد عبد الجبار خضير: الدراسات اللغويَّة والنحويَّة عند الدكتور عبد الأمير الورد، رسالة تقدَّم بها إلى مجلس كلية الآداب، جامعة بغداد، بإشراف د. مجيد نوط الشمري، ٢٠٠٨م.

٢-خضير، مؤيد عبد الجبار: القبح في العربية- دراسة تحليليَّة تقويميَّة، أطروحة تقدَّم بها إلى مجلس كلية الآداب، جامعة بغداد، بإشراف د. نهاد حسوبي صالح، ٢٠١٤م.

٣-الطيَّار، رزاق عبد الأمير مهدي: معاني الحروف الثنائية والثلاثية بين القرآن الكريم ودواوين شعراء المعلقات السبع: أطروحة تقدَّم بها إلى مجلس كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد، بإشراف الدكتور نعمة رحيم العزاوي، ٢٠٠٥م.

٤-عباس، محمد عبد الله: الخلاف النحوي في مصنفات الأصوليين، أطروحة تقدَّم بها محمد عبد الله عباس، إلى مجلس كلية الآداب/ جامعة بغداد، بإشراف: أ. د. مهدي صالح سلطان، ٢٠١٤م.

٥- يحيى، كيان أحمد حازم: منهجية القرافي وجهوده في دراسة الفروق اللغويَّة، رسالة ماجستير تقدَّم بها إلى مجلس كلية الآداب، جامعة بغداد، بإشراف د. خديجة عبد الرزاق الحديثي، ٢٠٠٧